"الفَضَاءُ الثَّالِثُ" لِ"زِينَةُ" فِي رِوَايَةِ (الْحَفِيدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ)"

الباحثة: لي مينغ مينغ
(بَاحِثَةُ دُكْتُورَاه في الأدَبِ العَرَبِيِّ)

المستخلص باللغة العربية:

تتناول رواية ((الحفيدة الأمريكية)) للكاتبة العراقية إنعام كجه جي إشكالية الهوية والانتماء الثقافي لدى العرب المنحدرين من أصول عراقية والمقيمين في الولايات المتحدة. تسرد الرواية قصة "زينة"، التي انتقلت منذ طفولتها إلى أمريكا، وعاشت دائمًا كـ "غريبة". بعد أحداث ١١ سبتمبر، عادت إلى العراق كمترجمة في الجيش الأمريكي، لتجد نفسها في صراع داخلي بين الثقافتين. وتستند هذه الدراسة إلى نظرية "الفضاء الثالث" لهومي ك بابا لتحليل كيفية بناء زينة لهوية هجينة بين أمريكا والعراق. وتنقسم الدراسة إلى ثلاثة محاور: الأول: تحليل الفضاء الثالث في الرواية، الثاني: أسباب انخراط زينة فيه، وأخيرًا دلالاته وانعكاساته. وتخلص الدراسة إلى أن قبول الهجنة الثقافية وتفعيل "الفضاء الثالث" يمثلان سبيلاً مهمًا للهويات المهمشة في ظل العولمة، ويقدمان تصورًا بديلًا لفهم التعدد الثقافي والاعتراف المتبادل.

كلمات مفتاحية: ((الحفيدة الأمريكية))، الفضاء الثالث، الهوية الثقافية، التهجين

Abstract:

The American Granddaughter, by Iraqi author Inaam Kachachi, explores the cultural and identity crisis of Iraqi-American Arabs caught between two worlds. The novel follows Zina, who emigrated to the U.S. as a child and remained an outsider. After ٩/١١, she returns to Iraq as a translator for the U.S. military, triggering deep internal conflict. This study applies Homi Bhabha's theory of the "Third Space" to analyze Zina's construction of a hybrid identity between Iraq and America. Divided into three sections, the study examines the nature of the third space in the novel, the causes behind Zina's identity fragmentation, and the theoretical implications of cultural hybridity. It concludes that embracing hybridity and

negotiating identity through a third cultural space offers a vital path for marginalized groups to survive and redefine belonging in a globalized world.

Keywords: The American Granddaughter, Third Space, Cultural Identity, Hybridity

المقدمة:

١. إنعام كجه جي وروايتها ((الحفيدة الأمركية))

صدرت رواية ((الحفيدة الأمريكية)) للكاتبة العراقية إنعام كجه جي عام ٢٠٠٨، وبلغت القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية عام ٢٠٠٩. تُرجمت الرواية إلى الإنجليزية والفرنسية والصينية، ونالت استحسانًا نقديًا في الأوساط الثقافية العالمية، حيث وصفتها مجلة بانيبال ومجلة ماريانا الفرنسية بأنها عمل نادر يعكس بعمق مأساة العراق وتمزق الهوية.

إنعام كجه جي، من مواليد بغداد عام ١٩٥٢، صحفية وأكاديمية تقيم في باريس منذ عقود، وعُرفت بأعمالها التي توثق معاناة العراقيين، لا سيما النساء، في ظل الحروب. من أبرز أعمالها :لورنا، طشاري، وسواقي القلوب. وتتميز كتابتها بمزج التجربة الشخصية بالتحليل السردي العميق.

تتناول الرواية قصة زينة، العراقية الأمريكية التي تعود إلى العراق مترجمة مع الجيش الأمريكي بعد أحداث ١١ سبتمبر، لتجد نفسها ممزقة بين انتماءين. تعكس الرواية صراع الهوية والاغتراب الثقافي من خلال شخصيات متعددة وتجربة معيشية مشحونة بالأسئلة الوجودية.

٢. هومي ك بابا ونظريته "الفضاء الثالث"

يسمى هومي ك بابا مع الباحث الأمريكي من أصل فلسطيني إدوارد سعيد، والباحثة الأمريكية من أصل هندي غاياتري سبيفاك ب ‘‘الثالوث الأقدس"، وهذا يعني أنه على الرغم من اختلاف نظريتهم، إلا أنهم جميعًا مفيدون في معالجة الفوضى بعد الاستعمار. يعد هومي ك بابا واحدًا من أكثر المنظرين تأثيرًا في فترة ما بعد الاستعمار. شرح مفهومي التهجين والفضاء الثالث في عمله المميز ((موقع الثقافة)) عام ١٩٩٤، حيث يتم استخدامها كاستراتيجيات فعالتين لحل الثنائية القطبين في الحقل ما بعد الاستعماري. أثار نشر هذا الكتاب انتباهًا كبيرًا في أنحاء العالم، ووفّر مساحة واسعة وأدوات منهجية مباشرة للناقس بين العلماء والخبراء في جميع مجالات الدراسات الثقافية، لا سيما الأبحاث والنقد النظري لما بعد الاستعمار. ومع تصاعد وتيرة العولمة، أصبحت نظرية هومي ك بابا أكثر أهمية، حتى صارت تُعد نظرية تمثيلية لحقل ما بعد الاستعمار في عالم اليوم.

تركز نظرية هومي ك بابا على الاستعمار اللاشعوري والنفسي، لا سيما الدور المهم للعوامل النفسية في عملية إعادة الإنتاج. من وجهة نظر التحليل النفسي، يقترح بهابها هجينًا للوعي النفسي والذاتي. أشار الأستاذ وانغ نينغ، وهو عالم معروف في جامعة تسينغهوا في الصين، في عام ٢٠٠٢ عند تلخيصه لنظرية هومي ك بابا، إلى أن جوهر هذه النظرية يتمثل في تفكيك الهيمنة الثقافية للمستعمرين الغربيين باستخدام مفهوم التهجين، مما يساهم في كسر موقع التهميش الذي يعاني منه العالم الثالث، ونقله إلى المركز وبالتالي تحقيق تنوع ثقافي عالمي حقيقي. لا توفّر نظرية هومي ك بابا أساسًا نظريًا للبحث في الهوية الثقافية والأقليات فحسب، بل تقدم أيضا طريقة محددة لنقّاد العالم الثالث كي يعبّروا عن آرائهم.[١] يعتقد هومي ك بابا أن العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر أكثر تعقيدًا ودقة غموضًا سياسيًا مما طرحه إدوارد سعيد. من أجل التعامل مع الفئة "الوسيطة" ضمن اختلافات ثقافية متصارعة، يسعى هومي ك بابا إلى الكشف عن التفاوض "الحدودي" （liminal） عبر الاختلافات العرقية والطبقية والجندرية، وتقاطعها مع تقليدية الهوية الثقافية. كما أشار في مقدمة ((موقع الثقافة))، حيث قال:" يمكن التفاوض حول الطبيعة القومية ومصلح المجتمع أو القيم الثقافية في فضاء وسيط.

نعلم أن بعض الجماعات العرقية قد تُمنح هوية ثقافية وطنية تبدو ثابتة في سياق الجغرافيا التقليدية والتاريخ الثقافي المحدد. لكن نظرية هومي ك بابا تنكر ثبات هذه الهوية، وتؤكد أن "وضع الثقافة اليوم لم يعد يأتي من قلب تقليدي نقي، بل تتشكل هوية جديدة متداخلة على حافة تواصل الحضارات المختلفة، وعلى الحدود جميع أفراد الشتات العرقي (بما فيهم المهاجرون في المجتمعات متعدد الثقافات) لا يمكنهم الانتماء إلا في عالم " الوسيط الثقافي"، أي الفضاء الثالث، حيث تُبنى الهوية الخاصة في النزاعات ومع التقاليد. "[٢] وهذا يعني أن الأقليات التي تقع خارج نطاق الهوية السائدة لا يمكنها إيجاد موقعها الثقافي إلا من خلال تجاوز قيود الثقافة الغالبة وثقافتها الذاتية.

في رواية ((الحفيدة الأميركية))، تجد البطلة زينة نفسها في هذا السياق، وهي تسعى إلى كسر قيود الهوية الثقافية الفطرية لتصل إلى هوية هجينة تتجاوز الأعراق، وذلك بمساعدة نظرية الفضاء الثالث. لا شك فيه أن هذه النظرية تُعد أداة إيجابية لمجموعة تحتاج إلى معالجة ارتباك الهوية ومشكلة التوجه الثقافي. كما أنها توفّر إلهامًا إبداعيًا وتوجيهًا روحيًا للكتّاب الذين يركّزون على هذه الفئات الخاصة.

الفصل الأول: وجود "الفضاء الثالث" في ((الحفيدة الأمريكية))

تنطلق هذه الدراسة من نظرية "الفضاء الثالث" لهومي ك بابا، وترى أن البطلة زينة في رواية الحفيدة الأمريكية تمثل تجسيدًا لهذا الفضاء الثقافي. ترصد الرواية وضع زينة في المجتمع الأمريكي والمعاملة التي تلقتها

بعد عودتها إلى العراق، حيث تجسّد كل من "البيت الأمريكي" و"المنطقة الأمنية العراقية" فضاءات ثقافية هجينة تُبنى فيها هوية جديدة. يناقش هذا الباب هذه الفضاءات الثقافية ويحلل خصائصها، مع التركيز على مظاهر الاختلاف الثقافي والصراع، التهجين الثقافي، ومسار التوافق.

١. "البيت الأمريكي"

في عصر العولمة والهجرة المتسارعة، تواجه الهويات الفردية والجماعية تغيرات جذرية قد تؤدي إلى تفككها أو حتى اختفائها في ظل تفاعل غير مسبوق مع الآخر. وبالنسبة للمهاجرين، تصبح قضية الهوية بارزة بشكل خاص. يشير هومي ك بابا إلى أن "طبيعة الهوية القومية ومصالح المجتمع والقيم الثقافية يمكن التفاوض بشأنها في فضاء وسيط"، وهو ما يسميه بـ"الفضاء الثالث" – مساحة ثقافية هجينة تُشكّل فيها الذات وضعها الجديد بين الثقافات.

"كيف لم تنس ابنتك لغة بلادكم؟"[٣] تسأل الجارات هذا السؤال لبتول، والدة زينة دائمًا. لم تنس زنية أبدًا القراءة والكتابة باللغة العربية بعد مغادرة بغداد، قرأت معظم الأعمال باللغة العربية. في بيت زينة لم تسمع أمها تتحدث بلغة غير العراقية. أما اللغة الإنجليزية فكانت لغة تُستخدم فقط عند الخروج من المنزل. تشبه زينة الغريبة في المجتمع الأمريكي السائد، حيث كانت لها "عصابة زينة" من الصديقات اللبنانيات والعراقيات والفلسطينيات والسوريات. حادث "١١ سبتمبر" جلبت حماسة كبيرة وكانت الحرب على وشك الانفجار. شعرت زينة بمزيج حاجتها إلى مترجمين عرب، فظنت زينة أن لها مهمة "إلف ٠بي ٠آي" من الهشاشة والحماسة. "أنا محارب، حريص على مساعدة حكومته ومواطنيه وجيشه. جيشنا الأمريكي، يذهب إلى هناك لإسقاط صدام وتحرير الناس الذين يعملون بجد." في الوقت نفسه، كان البعض يعتقد أن الانضمام إلى الجيش الأمريكي خيانة لنَهري دجلة والفرات اللذين رَوَيا البلاد (العراق)، حتى وإن كان ذلك من أجل مصلحة وطنهم الجديد (الولايات المتحدة).

بصفتها مهاجرة، تتفاعل زينة مع المجتمع السائد من المهجر (الولايات المتحدة) باعتبارها "شخص آخر" وتصبح جزءًا من مجموعة مهمشة ثقافيًا. "من أنا؟" بأكيد الهوية يرتبط بالكثير من المصالح الخاصة بالمهاجر، لذ تسعى زينة إلى البحث عن هوية قريبة من المجتمع السائد، وفكرت:" ماذا في امكني أن أُقدَم لمساعدة بلدي في هذا المحنة؟ بأي وسيلة تخدم مهاجرة مثلي، لا حول لها ولا قوة، دولة أميركا العظمي؟"[٤] نجحت زينة في اختبار اللغة العربية وذلك بفضل الجو العائلي المليء باللغة العربية، مما جعل طفولتها في الولايات المتحدة تحمل بصمة الثقافة العربية. وعندما انفجر الحرب، لم تعد حياة زينة كما كانت من قبل. أصبح الجميع مدمنين على التلفزيون. "ورغم حماستي للحرب أكتشف أنني أتألم ألما من نوع غريب يصعب تعريفه؟ هال أنا منافقة، أميركية بوجهين؟ أم عراقية في سبات مؤجل مثل الجواسيس النائمين المزرعوين في

أرض العدو من سنوات؟ لماذا أشعر بالإشفاق على الضحايا وكأنني تأثرت بالأم تيزيزا، شريكتي في اسم القديسة شفيعتي؟"[٥] على الرغم من أن زينة موجودة في الولايات المتحدة، فإن تفكيرها يتجه إلى عائلتها وأصدقائها في بغداد.

إن هوية المهاجر متعددة وهي متداخلة أحيانًا ومتضاربة أحيانًا أخرى، مما يسبب قلقًا وجوديًا وشقاءً وأزمات، ويجعل من الهوية مشكلة رئيسية يعاني منها المهاجرون. في الدراسات الثقافية، تُعد الفئة التي تعيش في "الفضاء الثالث" مجموعة اجتماعية تنمو غالبًا في سياق ثقافي متعدد اللغات، ويصعب تحديد هويتها باستخدام التعريفات القومية التقليدية. أما "الثالث" فله معنى خاص في اللغة الإنجليزية، إذا يُعبّر عن تجاوز الثنائية التقليدية، ويصف حالة " أن تكون هذا وذلك في آن معا" أو "لا هذا ولا ذاك".

بالإضافة إلى الغموض والتجاوز، تؤكد نظرية "الفضاء الثالث" لهومي ك بابا أهميتها في بناء ثقافة جديدة وصياغة سياسات بديلة للهوية. في رأيه، يظهر "الفضاء الثالث" غالبًا في شكل "التهجين" وقد تطوّرت نظرية التهجين من منظور الأدب والثقافة لوصف كيفية بناء الهوية الثقافية في سياق من عدم المساواة والصراع. أما زينة في الرواية، فهي مهاجرة وتُعد جزءًا من مجموعة هامشية في المجتمع الأميركي، ومع اندلا ع الحرب في العراق، أصبحت هويتها في المجتمع الأميركي أكثر تعقيدًا، وتطوّرت ضمن فضاء التهجين، مما يعكس التوترات الهوياتية التي تعيشها الشخصية في عالم متعدد الثقافات.

٢. "المنطقة الأمنية العراقية"

إن "المنطقة الأمنية العراقية" تمثل فضاءً من "الفضاء الثالث"، حيث تتجسد فيه مظاهر التهجين والتداخل من حيث التوجّه الثقافي، مقارنةً بـ"البيت الأمريكي". إن العلاقة بين الجيش الأمريكي والشعب العراقي هي علاقة بين الغازي والمغزو على أرض العراق. وتعتمد الهوية الثقافية المتأصلة في الثقافين، في نفس الوقت على أساس التهجين والوسيطة. في الوقت نفسه لا بد من الاعتراف بأنها عملية تفاوض مستمر، ليست مجرد معارضة ثنائية بسيطة بين الغازي والمغزو، إذ أن هوية الغاز لم تعد مؤكدة، لأنها تتعرض للاضطراب بفعل وجود الآخر (المغزو) وبالتالي تُعاد صياغتها والتفاوض حولها باستمرار.

" رغم الترقب والإجهاد، حالة غريبة من الشفافية عندما دخلنا الأجواء العراقية. خيل لي أنني أشمَ عبق زهر القداح على أشجار النارنج في الحدائق، والرائحة الشهية للدخان المتصاعد عن السمك المسقوف."[٦] لكن الحقيقة هي أن الطائرات التي حطّت في بغداد غالبًا ما أصبحت أهدافًا للقذائف. كان جو المقر المؤقّت حارًا وسيئًا. ومع ذلك، لا تزال زينة تشعر برائحة مألوفة. " هذا بلدي ورالي ضيفتي، سأضع لهذا الفيلم عنوان ((العودة المتأخرة)). وفيه تعود البطلة إلى الأرض التي غادرتها قبل خمس عشرة سنة، لا عودة زائرة مشتاقة إلى

مسقط رأسها بل جندية إلى أرض قتال."[٧] تريد زينة أن تقدم نفسها للعراقيين بكل فخر، فهي تعتبر نفسها "إحدى بناتهم". تتحدث لغتهم بلهجتهم. ولكن من الواضح جداً أن الحديث إليهم قد يعرّض حياتها وحياة رفاقها للخطر. كرهت زينة بزتها العسكرية الأمريكية واعتقدت أنها تفصلها عن العراقيين، كما لو كانوا في خندقين مختلفين. آنذاك، قالت "ممثل الممثلين البارعين في التقليد، القدرة على التقمص وتغيير الشخصيات وعلى أن أكون ابنتهم وعدوّتهم في آن واحد. وأن يكونوا هم، في الوقت عينه، أهلي وخصومي."[٨] ولكن في الواقع، من وجهة نظر العراقيين، كانت زينة أكثر بُغضًا من الغازي نفسه.

عندما وطأت أقدام زينة في أرض العراق، اعتبرت هذا البلد وطنها. لكن بالمقارنة مع رفاقها، يكره العراقيون زينة أكثر ويعتبرونها خائنة. تُعد قضية الهوية من أبرز القضايا التي تزداد حدة في ظل مواجهة الكراهية من أبناء الوطن الأصلي. فالهوية هي مزيج من التعرف على الذات واعتراف الآخرين بها. ويُعتبر اعتراف الآخرين بالهوية الذاتية أكثر أهمية في عملية تكوين الهوية. بعد عودة زينة، كانت القريبة الوحيدة التي استقبلتها هي جدتها رحمة، لكنها اعتقدت أن حفيدتها تعمل مع لأمريكيين، أي مع الغزاة، ورأت فيها طفلةً غير مهذب يحتاج إلى إعادة تربية. وكما رأيت أن زينة قد تغيّرت، وتحولت إلى "اللون الأخضر" وهو لون يرمز إلى المنطقة الأمنية العراقية. عندئذٍ، بدأت الجدة تُشكك في هوية زينة، ولم تعد واثقة من انتمائها الحقيقي.

على الرغم من أن زينة تعيش في أرض العراق الآن، فإنها لا تزال تشعر بالارتباك بين البلدين والثقافتين. لذلك في بداية الرواية قالت زينة" من يومها بدأت أعي إصابتي بأعراض داء الشجن وأتعايش معه ولا أبحث له عن دواء. كيف أقاوم الداء الذي أعاد إنجابي، وهدهدني، وكبّرني، وربّاني، وأدّبني فأحسن تأديبي؟"[٩] في الواقع، فإن نظرية "الفضاء الثالث" لهومي ك بابا مناسبة لتحليل هذه الحالة المختلطة في الرواية، إذ تتيح إمكانية البحث عن موقع ثقافي جديد، وعن فضاء ثقافي هجيني يُساعد في تجاوز الارتباك والحيرة، ومن ثم بناء هوية ثقافية جديدة والوصول إلى حالة من التوازن الهوياتي.

"الفضاء الثالث" هو فضاء مليئة بالاختلافات والتناقضات. إنها يمثل الكتابة والتعبير عن التهجين الثقافي. وفقاً لفكرة هومي ك بابا فإن "الفضاء الثالث" يشجّع على التفاوض حول الهوية الوطنية والثقافة والتجربة الجماعية من خلال استخدام المعاني والرموز الثقافية غير المتغيرة والثابتة باستمرار. استراتيجية التهجين (hybridity) هي أساس ومصدر لنظريته "الفضاء الثالث". وبما أن "تهجين" الأمة أمر لا مفر منه فإن الهوية الثقافية بلا استثناء.[١٠] وير بابا أن "الفضاء الثالث " هو "فضاء بيني" (interstitial space)، وهو لا يرفض فقط الوعي الذاتي الذي يسعي للعودة إلى "جوهرية" بدائية، بل يرفض أيضا فكرة الانقسام المطلق والدائم في الهوية. من هذا يمكننا أن نعرف أن نظرية "الفضاء الثالث" لهومي ك بابا ترفض الأصولية ووجود هوية "نقيّة" بشكل مطلق، ومن جهة أخرى لا تؤمن بالانقسام الكامل، بل تعتبر الهوية مجالًا مليئًا

بالاختلافات التي تتفاعل وتتداخل فيما بينها. وهذا الناتج الثقافي الهجين الجديد يحّل محل النموذج الثنائي القائم على التمييز بين الغازي والمغزو. أما بالنسبة لمجموعة خاصة مثل زينة، فإن يعد هذا الفضاء غير المباشر والمتداخل هو ما يمثل فعليًا "الفضاء الثالث".

الفصل الثاني: خصائص "الفضاء الثالث" في الرواية

١. الاختلافات والصراعات

إن هوية زينة في رواية الحفيدة الأمركية تتجسد في شكل اختلاف وصراع بين ثقافتين في الواقع. وليس لديها خيار آخر سوى الخروج من الصراع والتحرك نحو الانسجام، وذلك عبر "الفضاء الثالث"، حيث يمكنها بناء هويتها الخاصة وسط تقاليد متناقضة ومتضاربة. بما أن المجتمع المعاصر يمرّ بمرحلة العولمة، فإن قضايا الهوية أصبحت ذات أهمية عالمية في العصر الحديث. وتُعدّ مشكلة الهوية لدى الفئات الهامشية أكثر وضوحًا وجذبًا للاهتمام.

الهوية الثقافية (cultural identity) تُترجم أيضًا إلى "حدود ثقافية". أي تحديد الذات لذاتها. وهذا يعني ما الذي أوافق عليه؟ وكيف التعامل مع العلاقة بين "أنا" و "الآخر"؟ "هويتي مشترطة بالالتزام (commitment) والتحديد النفسي(identification)، وهذه الالتزامات والتحديدات توفّر إطارًا وآفاقا. وفي هذا الإطار، يمكنني محاولة تحديد ما هو جيد أو ذو قيمة، أو ما ينبغي فعله، أو ما أؤيده أو أوافق عليه في سياقات مختلفة. بعبارة أخرى إنها آفاق يمكن من خلالها اتخاذ موقف." [١١] انطلاقًا من هذا التصور، فإن "الهوية الثقافية" هي منظومة من الآفاق أو النظام الذي يمكن من خلاله تعريف "الذات" والعلاقات المرتبطة بها. بالمقارنة مع ثقافة المجتمع السائد في بلد المهجر، فإن المهاجرين يعتبرون جزءًا من ثقافة هامشية. وإلى جانب المشكلات الملموسة التي يواجهونها كالمعيشية وفرص العمل وأسلوب الحياة، هناك مشكلات أعمق تتعلق بالهوية، مثل: "من كنت في الماضي؟ من أنا الآن؟" وهي سلسلة من التساؤلات التي تُختبر من خلالها الاختلافات والصراعات في أثناء البحث عن إجابات حول الهوية.

كتب منظّر ما بعد الاستعمار إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق ما يلي: "من يظن أنه لا يوجد مكان جيد إلا مسقط رأس، فهو مجرد طفل صغير لم يكبر بعد. ومن يظن أن كل مكان جيد كمسقط رأسه، فقد كبر. ولكن عندما يدرك الإنسان أن العالم ليس ملكه فقط، يكون قد نضج أخيرًا."[١٢] ثم أوضح قائلا: "كلما ابتعد الإنسان عن منزله الثقافي، أصبح إصدار الأحكام أسهل عليها". لقد كانت الكاتبة إنعام كجه جي بعيدة عن مسقط رأسها لفترة طويلة، حيث عاشت في بلدان أخرى. قررت كتابة هذه الرواية بعد أن قضت بعض الوقت في وطنها العراق في صيف عام ٢٠٠٣. لقد كانت تنظر إلى المأساة المزدوجة من خارج العراق،

ومن خلال هذا المنظور الخارجي المتقاطع، استطاعت أن تدرس التجربة وأن تعبّر عنها. تحت تأثير هذا التهجين الثقافي، تشكّل في رواية الحفيدة الأمريكية ما يمكن تسميته بـ"الفضاء الثالث" المعقّد، حيث تتقاطع الانتماءات والهويات وتُعاد صياغتها في ضوء تجربة الاغتراب والعودة والانقسام الثقافي.

انتقلت زينة إلى الولايات المتحدة مع والديها في طفولتها، وفي السياق الثقافية الأمريكية السائدة، تتم استيعاب ثقافة المهاجرين بدرجات متفاوتة. من المعتاد أن يعاد تشكيل التراث الثقافي أو تغييره على أساس الانسجام الثقافي، وصولا إلى تحقيق الاختراق والتجاوز. في رواية الحفيدة الأمريكية، تظهر الصراعات الثقافية بشكل أكثر وضوحًا. فقد دفع أحداث ١١ سبتمبر زينة إلى الانضمام إلى الجيش الأمريكي، وبالتالي اكتساب الجنسية الأمريكية. ولكن هذا القرار لم يُقابل بالفهم، بل واجه رفضًا عاطفيًا من والدتها بتول، خاصة عندما أقسمت زينة يمين المواطنة الأمريكية. "مشت أُمي مبتعدة عنّا كمن تسير في جنازة وجلست ملمومة على نفسها تحتضن حقيبتها اليدوية وكأنها تتستّر على شيء في داخلها. ..... حينها سمعت صوت أمّي يتحشرج وكأنها تختنق، والتفت إليها ورأيت وجهها الأبيض الوديع وقد صار قرمزيا كمن داهمتها حمّي، والدموع تهطل غزيرة من عينيها وتفرّ متبخرة من سخونة خديها.....وكان صوت السيدة العراقية بتول الساعور، أمي، هو النشاز الوحيد الذي يولول بالعربية: "سامحني يا أبي... بابا سامحني".[١٣] حافظت بتول على لغتها وجنسيتها وأفكارها التقليدية، وقد تعارض ذلك مع رغبة زينة في الحصول على القبول الأمريكي والانخراط في ثقافة المجتمع الجديد.وعندما استحضرت زينة طفولتها، تذكّرت مناداة الجدة لها:" زين... زيونة حبيبتي... زوينة... زنزن... زينة البيت..."،[١٤] هذه الألقاب المختلفة التين نادتها بها رحمة تعكس حبًا عميقًا وحنانًا خاصًا، شكّل جزءًا من ذكريات الطفولة الدافئة لزينة، وجعل حياتها ممتعة في نظرها. غير أن هذا التناقض مع واقع استقبالها بعد عودتها إلى العراق كان شديدًا. تحكي الرواية عن تصاعد التوتر بين زينة وجدتها، خاصة عندما بدأت رحمة تشك في عمل حفيدتها. ففي البداية، عاملتها بحنان، لكنها ما لبثت أن خمّنت أن زينة تعمل مع الأمريكيين، فتقول الراوية: "قاطعتني بفزع أمّ شرقية تشكّ في أن ابنتها البكر حامل وستلوث شرف العائلة. وكان في نبرة صوتها خسفة جعلتني اتخيل أن قلبها سيتوقف لو أخبرتها بالحقيقة."[١٥] في نظر جدتها رحمة، أصبحت زينة متحالفة مع الغزاة، وتحوّلت العلاقة بين الجدة والحفيدة إلى علاقة بين الغازي والمغزو. وهكذا، تظهر في الرواية صراعات وتناقضات هوياتية بين زينة وأمها وجدتها. وفقا لنظرية هومي ك بابا، فإن هوية الغازي لم تعد مؤكدة، إذ تتزعزع بفعل وجود "الآخر" (المغزو). ويعد "الفضاء الثالث" فضاءً مليئًا بالاختلافات والتناقضات. باختصار فإن "الفضاء الثالث" هو فضاء التهجين، أي ذلك الفضاء المتداخل لذي يتشكّل على أساس الصراعات والاختلافات الثقافية، ويحمل أهمية كبيرة في تفسير حالات الانقسام الهوياتي المعقّدة.

٢. التهجين والانسجام

لقد تُرجمت رواية الحفيدة الأمريكية إلى عدة لغات منذ نشرها. وهي تُعد مثالًا حيًا على الأدب الثقافي العابر للحدود. تصف الرواية بدقة ألما عميقًا يعاني منه بلد ممزق، وتجسد مأساة مزدوجة: فشل الولايات المتحدة وعار العراق. تُطرح مشكلة الهوية عبر التهجين في شخصية زينة من بداية الرواية حتى نهايتها. ونحن لا نكتفي بالتعاطف مع هذه المرأة، بل الأهم من ذلك أننا نحلل عبرها "الفضاء الثالث" كما يتجلى في النص.

بالنسبة لفئة هامشية وخاصة مثل زينة، أدت الصراعات متعددة الثقافات إلى استحالة امتلاك هوية ثقافية بدائية أو خالصة. وبدلًا من ذلك، لا بد من السعي نحو انسجام هوياتي، وهو ما يتحقق من خلال بناء "الفضاء الثالث."

تعاني زينة في العراق من أزمة هوية وقلق وجودي، وحتى بعد عودتها إلى الولايات المتحدة، لم تعد "أميركية عادية"، بل أصبحت شخصًا منتمياً إلى منبع ثقافي آخر. تقول:" لكني أحب شجني هذا وأستعذب نعومة حصاه وأنا أخوض بروحي العارية في ساقيته، ولا أغرب أن أطرح عبثه عن كاهلي. شجني الجميل الذي يشعرني بأنني لم أعد امرأة أميركية عادية بل إنسانة من منبع آخر، بعيد وموغل في القدم، تطوي اليد على جمرة حكاية تندر مثيلاتها."[١٦] وفي نهاية الرواية، تنتهي مدة عقد زينة مع الجيش الأميركية ولا تقوم بتجديده. تقول "عدت من بغداد بهذه الحصيلة. شجن مثل عسل مصفي. ثقيل ولزج وشفاف، يفيد في ليالي الأرق ويحرّض على كتابة الشعر. عذاب لا يصلح لتقوية الهموم والمعنويات، لا يشد الوجه ولا يصوبن المفاصل. يقودني الشجن، من يدي إلى غابة الأشجار الرمادية، ينساني هناك."[١٧] كل شيء أصبح ثقيلاً في حياة زينة: اللغة، الانتماء، الذاكرة، والحنين. وهذا الثقل، الممزوج بالشجن، هو مظهر من مظاهر "الفضاء الثالث"، حيث تلتقي عناصر الهوية المختلفة، لا لتتصارع فقط، بل لتتفاوض وتُعاد صياغتها ضمن شكل من الانسجام الداخلي الهش والمركّب.

لا شك أن محاولة زينة للاندماج لم تكن مقبولة من وجهة نظر جدتها رحمة في أرض بغداد خلال حرب العراق. تقول الراوية:"رمقتني بنظرة طويلة لم أخطئ في قراءتها: هل يعقل في هذا الزمان المجنون أن تنجب بزة العقيد العراقية سترة ضد الرصاص (صنعت في أمريكا)؟ "[١٨] لقد أثارت هذه النظرة ألما شديدًا لدى زينة، إذ إن ثقافة التهجين التي تمثّل واقعها أصبحت عبئًا حتميًا لا مفر منه. لقد أدركت زينة أنه من المستحيل العودة إلى العراق والبقاء فيه لفترة طويلة. تقول:" أسألها عن القنينة. تحلف طاووس بالعباس أبي فاضل أن جدّتي أخرجتها وكرعتها كلها يوم رأيت (بهدوم الأمريكان وراكبة دبابة)." [١٩] كان تصرف الجدة غير طبيعي، وجاء كرد فعل عاطفي على ما اعتبرته خيانة من حفيدتها. فرغم أن زينة سبقت الآخرين وانخرطت ضمن صفوف الجيش الأمريكي اعتقادًا منها بأنها تلعب دورًا في الحد من الوحشية الأمريكية ضد الشعب العراقي، فإن موقف الجدة كان دائمًا واضحًا: في عينيها، كل ما تقوم به زينة هو خيانة. تُمثل رحمة نموذج المرأة

الرائدة في ذلك الجيل، لكنها تنتمي إلى منظومة ثقافية مغايرة، وبالتالي لا توجد هوية ثقافية ثابتة بين الأجداد والأحفاد. ومع ذلك، فإن الشخصية التي تقابل زينة بتفهم وتسامح هي أخوها مهيمين، الذي يظهر في حياتها أكثر من مرة، ويعاملها كأخته الصغيرة العزيزة. بالمقارنة مع الجدة، فإن فهمه أعمق وتواصله مع زينة أكثر شمولًا وإنسانية. حين أراد تهدئتها، تقول الرواية: "كأنه يقول لي: لا تخجلي يا أختي من بزة الجندية الأمركية... لكل منا بزته التعيسة التي يرتديها تحت جلده."[٢٠] وفي نهاية القصة، تقع زينة في حب هذا الرجل المستحيل، وتقيم معه علاقة، وتقول "أريد رجل هنا يتزوج مني... إذا صحت، سأبقى في بغداد. مثل هريرة حسنة التصرف حول قدميه." إن فهم مهيمين وتسامحه مع زينة يُعد في الواقع نوعًا من الاعتراف بالقيم الثقافية للآخر، وتمثيلًا للفضاء الثالث في أبعاده العاطفية والاجتماعية.

وفي النهاية، تدرك زينة أنها استُنزفت، وأن ذاكرتها امتلأت بأسماء القتلى، ولم يعد في لسانها غير طَعم المرارة، ولا في أنفها غير رائحة الشجن. كما أدركت أن هذه الحرب ليست "حياة خيالية"، ولا يمكن بيع الديمقراطية كما تُسوّق في الشعارات السياسية.

يتركز وصف النزاع في النص على شخصية زينة التي غاصت عميقًا بين الثقافتين عدائيتين إلى حدٍّ ما. لا يمكن حل الألم والارتباك اللذين تعاني منهما زينة إلا من خلال التواصل ب فعّال وطويل الأمد بين الثقافتين. في النص لا تنتمي هوية زينة إلى ثقافة واحدة، بل تتكوّن نتيجة الانسجام الثقافي الذي يجمع بين هويتين ثقافيتين مزدوجتين. فالصراع والمواجهة لا يُعدّان أمرين مرعبين بطبيعتهما، بل يمثلان شرطًا ضروريًا لنمو الهوية. "إن تطوير وصيانة لأي ثقافة يعتمد على وجود آخر مختلف ومتنافس. أي تكوين الذات، سواء كانت شرقية أو غربية، هو في النهاية بناء يقوم على تأسيس الأضداد الخاصة و"الآخر". يتم تحقيق هذا "الآخر" من خلال عملية تفسير مستمرة وإعادة تفسير للتمييز بين "نحن" و"هم"."[٢١] وعلى الرغم من أن الانسجام الثقافي لا يتحقق بشكل كامل في صورته المثالية، فإن "الفضاء الثالث" قد تم بناؤه بنجاح في نهاية الرواية. وفي هذا الفضاء الثقافي الهجين، تستطيع زينة أن تستمر في حياتها في الولايات المتحدة مستقبلاً، بعد أن وجدت طريقة لإعادة بناء الهوية الثقافية لفئتها الخاصة، تلك التي لا تزال تعيش في المهجر بعد الحرب. من خلال مراحل الاختلافات والصراعات، التهجين، ثم الانسجام، تصل زينة في النهاية إلى ما يُعرف بـ"الفضاء الثالث"، حيث تتكوّن ثقافة جديدة قادرة على احتواء التعدد والازدواجية والتوتر الهوياتي.

الفصل الثالث: أسباب وجود زينة في "الفضاء الثالث"

وصفت الكاتبة إنعام كجه جي المأساة من خلال بطلتها "زينة"، حيث استعانت بنظرية "الفضاء الثالث" لهومي ك بابا، لتُبيّن كيف تم بناء "الفضاء الثالث" للعرب من أصول عراقية ويحملون الجنسية الأمريكية، كما هو حال زينة في الرواية. يتجسد "الفضاء الثالث" في النص من خلال فضاءين رمزيين: "البيت

الأميركي" و"المنطقة الأمنية العراقية". إذ تحاول الرواية من خلالهما أن تقدم نموذجًا للأقليات الخاصة وهي تبحث عن هوية ثقافية وسط التمزق والانقسام. إن العرق والطبقة والجندر والموقع الجغرافي، كلها عوامل تؤثر على في تشكيل الهوية. كما أن العمليات التاريخية والسياقات الاجتماعية والثقافية والسياسية تلعب دوراً حاسمًا في بناء هذه الهوية.[٢٢] يحاول هذا الفصل تحليل أسباب وجود زينة في "الفضاء الثالث" من خلال أربعة جوانب أساسية: اللغة، الهوية من منظور الذات، الهوية من منظور الآخر، الخلفية السياسية. ومن خلال هذا التحليل، يتضح كيف تم بناء هوية هجينة داخل "الفضاء الثالث"، حيث تتقاطع الانتماءات وتُعاد صياغة الذات في سياق ثقافي مركّب.

١. استخدام اللغة العربية والإنجليزية ظرفيتا

تدفع العولمة في عالم اليوم إلى تبادل الثقافات على نطاق واسع. وفي بيئة متعددة الثقافات، يحدث تفاعل، بل أحيانًا صراعٌ، بين الثقافة المحلية مع الثقافة الأجنبية. وتشير "الثقافة المتعددة" إلى وجود ثقافات المتبادل متعددة داخل الفضاء نفسه، مما يؤدي إلى تنوع في الهوية الاجتماعية والثقافية.[٢٣] ترتبط الهوية الثقافية ارتباطًا وثيقًا بالتقاليد والمعتقدات واللغة والقيم. وتُعد العلاقة بين اللغة الثقافية والهوية علاقة لا تنفصم. حيث تؤثر كل واحدة منها في الأخرى.[٢٤] تعتقد نظريات الهوية التقليدية على أن عوامل مثل العرق والسياسة والطبقة الاجتماعية والبلد تُعد من أبرز المحددات في تكوين الهوية الفردية. لكن إدراك العلاقة بين اختيار اللغة والهوية أمر مهم بالنسبة إلى الأفراد والجماعات الاجتماعية، خاصة في السياقات متعددة اللغات. وفي الوقت نفسه، تُعد اللغة جزءًا أساسيًا من الثقافة الاجتماعية. ويعتقد كثير من علماء اللغة أن اللغة خاصة اللغة الأم، تمثل أساسًا محوريًا في بناء الهوية الشخصية. وتعتبر الهوية اللغوية هي هوية ثابتة يحددها الأفراد في بيئة متعددة الثقافات للتكيف مع الثقافة الاجتماعية.[٢٥]

في الرواية، قضت زينة طفولتها في العراق، وكانت حياتها الأسرية مليئة بالحب والضحك. في الرواية، قضت زينة طفولتها في العراق، وكانت حياتها الأسرية مليئة بالحب والضحك. ولكن بسبب اعتقال والدها صباح بتهمة التآمر ضد الأحزاب السياسية والثورية، أُودع السجن وتعرض لسوء المعاملة، مما أنهى الحياة السعيدة للأسرة بشكل مفاجئ، وانتقلت العائلة إلى الخارج. بعد الهجرة، بدأت زينة في استخدام اللغة الإنجليزية خلال مرحلة شبابها، حيث أصبحت اللغة المستخدمة في الشارع، وفي العمل، وفي نشرات الأخبار التلفزيونية. كما كان هناك رجل أمريكي مفضل بالنسبة لها يُدعى كالفِن. تقول "تدور سياراتنا بنا وبالغة الإنجليزية من شارع إلى شارع، من سوق إلى سوق، حتى إذا عادت إلى موقفها المسقوف بالجنكو أمام المبني، لبسنا لغتنا الأخرى ودلفنا بها إلى البيت."[٢٦] على مدار أكثر من عشر سنوات من حياة الهجرة، استخدمت زينة اللغة الإنجليزية واللغة العربية بحسب الظروف، أي أنها كانت تتنقل بين اللغتين تبادليًا. كانت القراءة

والتواصل والتفاعل داخل المنزل تتم باللغة العربية. ورغم أن هذا التأثير جاء بالأساس من والديها، فإنه ساعد زينة على عدم النفور من لغتها الأم، بل ساهم في المحافظة عليها كجزء أساسي من هويتها الثقافية.

بشكل عام، يُعد الاستخدام اللغة بشكل ظرفي ظاهرة شائعة في عملية التفاوض على الهوية، خصوصًا لدى المهاجرين القادمين من البلدان النامية أو ذوي الخلفيات الثقافية المنخفضة أو المتجذرين بعمق في الثقافة التقليدية. وهناك نوعان رئيسيان من الاستخدام الظرفي للغة في هذا السياق: الأول هو اللغة التي تُستخدم كأداة عملية في المهجر لتسهيل الاندماج في المجتمع المحلي؛ أما الثاني، فهي اللغة التعبيرية، أي اللغة الأم للمهاجرين أنفسهم، والتي تُستخدم غالبًا داخل الأسرة والمجتمعات المهاجرة بهدف الحفاظ على الثقافة التقليدية للأمة الأصلية.[٢٧] في معظم الحالات، لا يستطيع المهاجرون تحقيق اندماج كامل في مجتمع المهجر. وبالنسبة للمهاجرين مثل زينة، فإن وجودهم في المجتمع الأمريكي هامشية. تعد اللغة التي تستخدمها الجماعة واحدة من أهم رموز الهوية العرقية، إذ إن الكثير من المهاجرين –وحتى بعض المجموعات السائدة في مجتمع المهجر – يحددون الهوية العرقية استنادًا إلى اللغة التي يتحدث بها الفرد أو الجماعة، أكثر من اعتمادهم على خصائص مؤسسية أخرى، ويتم استخدامها لقياس درجة استيعاب الهجرة والتغيرات المرتبطة بها في الهوية الثقافية.[٢٨]

تعتمد حياة زينة في الولايات المتحدة إلى حدٍّ كبير على اللغة الإنجليزية. بينما كان والداها، وخاصة والدها صباح، قد تعرضا للاضطهاد السياسي في العراق، مما دفع بتول إلى ترك كل شيء ولم تعد ترغب في البقاء في البلاد.

ومع ذلك، بعد انتقالهما إلى الولايات المتحدة، بقي العراق حاضرًا بقوة في حديث والدها، رغم صمته الظاهري. أما بتول، فلا تزال تشعر بالألم حين أقسمت زينة اليمين للحصول على الجنسية الأمريكية. ولم تفهم زينة لماذا لا يزال والداها متمسكين ببلدٍ قاسٍ جدًا لدرجة أنه "كسر أسنانهما"، على حد وصفها. في بداية رحلتها، عندما علمت زينة أن راتبها سيكون ٩٧ ألف دولار في السنة، أرادت أن تجلب السعادة لوالدتها وتعتني بأخيها. وبعد عودتها إلى العراق، حاولت الاندماج في المجتمع المحلي وتقديم المساعدة للناس على هذه الأرض، لكنها لم تكن موضع ترحيب، بل قوبلت بالكراهية، مما أدى إلى وقوعها في أزمة هوية منذ اللحظة التي وطأت فيها قدماها أرض العراق.

إن اللغة ليست أداة الاتصال فقط، بل هي أيضاً حامل ثقافي. فهي تُعبّر عن الثقافة وتُشير إليها. وقد احتلت اللغة الإنجليزية جزءًا كبيرًا في حياة زينة في الولايات المتحدة، مما أدى إلى تغريبها نسبيًا عن

جذورها. فاللغة نظام رمزي يحمل قيمًا ثقافية خاصة، وهي رمز جوهري للهوية الاجتماعية. وسواء على مستوى الفرد أو الجماعة، تُعد اللغة جزءًا مهمًا من بناء الهوية.

ومن أبرز مظاهر تحديد الهوية الشخصية في اللغة هو الأسماء. فقد ورد في الرواية أن الأم بتول كانت ترغب في تسمية ابنتها باسمها الكامل في مسقط رأسها بالموصل: زينة بنخام ساعور. وهذا يدل على أن اكتساب اللغة غالبًا ما يرتبط بتضاربات هوية معينة، لأن من يتعلم لغة جديدة يكتسب معها هوية جديدة أيضًا. يجب أن يتضمن اكتساب اللغة مفيدا تضاربات هوية معينة. لأن متعلمي اللغة اكتسبوا هوية جديدة بينما اكتسبوا مهارات لغوية جديدة.[٢٩] الذين يتقنون لغتين هم غالبًا من يسعون إلى إيجاد نوع من التكامل بين مجموعتين عرقيتين وهويتين وثقافتين.[٣٠] ولكن اختلاف الخلفيات الثقافية جعل زينة غير قادرة على الانتماء الكامل لأي مجموعة، فوقع لديها ارتباك في تحديد هويتها الثقافية. فالهوية لا تصبح أزمة إلا عندما يتم كسر الحالة الطبيعية والمستقرة للفرد، مما يؤدي إلى الغرق في مأزق الهوية. وباختصار، فإن الاستخدام الظرفي للغتين كان السبب المباشر لوجود زينة في "الفضاء الثالث" وهو واقع لا مفر منه.

٢. تحديد الهوية من ذاته

ما هي الهوية؟ تعود كلمة "هوية" إلى الأصل اللاتيني "idem" الذي يعني "التشابه" أو "التماثل"، وقد تطورت لاحقًا إلى كلمة "identity" في اللغة الإنجليزية. بمعنى "الهوية" أو "التناسق الداخلي". ويشتمل تعريف الهوية عمومًا على ثلاثة معانٍ رئيسية:"

١."التشابه"(sameness): أي ثبات طبيعة الشيء وخصائصه، وهو ما يرتبط بوعي أعضاء الجماعة بوحدتهم الهوياتية، ويُقابل هذا المفهوم فكرة "الاختلاف" في العلوم الاجتماعية.

٢. الخصوصية والتأكيد: إذ يميّز أعضاء الجماعة أنفسهم عن الآخرين من خلال تحديد السمات المشتركة بينهم، ويُركّزون على الهوية كوسيلة لتحقيق الانتماء العاطفي والأمان الذاتي.

٣. الاعتراف والاتفاق، وهو ما يتعلّق بالولاء والالتزام والمسؤولية." [٣١]

إن الهوية هي شكل من أشكال الإدراك والتوصيف الذاتي، وتنقسم إلى عدة أنواع: الهوية الفردية، والهوية الجماعية، والهوية الذاتية والهوية الاجتماعية وغيرها. "من أنا؟ كيفية تحدد أنا؟ "ويتطلّب الإجابة عليه الدخول في عملية فهم وتفسير للذات. فكل إنسان يمتلك هويات متعددة، تتفاعل مع الأدوار التي يؤديها في المجتمع، أو داخل المؤسسات والمنظمات التي ينتمي إليها. "ليس ذلك فحسب، بل إن الهوية تُبنى من خلال الإنسان لذاته وتصور الجماعة لهويته.، لذلك يمكن تقسيمها إلى الجانب الذاتي (يعني تصوّر الفرد لذاته وقناعته الداخلية بهويته) والجانب الموضوعي (وهو الهوية كما يراها أو يُعرّفها الآخرون (المجتمع، الجماعة،

المؤسسة)).[٣٢] ينشأ سؤال "من أنا؟ "في الغالب نتيجة لصدمة أيديولوجية أو أزمة روحية حادة، تؤدي إلى إعادة التفكير في الهوية وربما التشكيك فيها. ومن خلال إدراك وجود المشكلة وفهم أسبابها بوضوح، تبدأ عملية إعادة بناء الهوية، وهي عملية معقدة لكنها ضرورية لتحقيق الاتزان النفسي والاجتماعي.

في البداية هاجرت زينة إلى الولايات المتحدة، كانت تبكي طوال الليل لمدة ثلاثة أشهر بسبب اشتياقها الشديد إلى الوطن، كما لو كانت مريضة، ولكن في الشهر الرابع، بدأت الأمور تعود إلى طبيعتها، فالتحقت بالمدرسة وشاركت في دوّامة الحياة اليومية. عندما انضمت إلى الجيش الأمريكي وحصلت على الزي العسكري، أصبحت مترجمة عربية. في تلك اللحظة، شعرت زينة بفخر كبير، وكانت تعتقد راسخًا أن هذه المهمة ستجعلها جديرة بالجنسية الأمريكية، وفي الوقت ذاته تُعد وسيلة لسداد "الدين المعنوي" تجاه العراق. على مدار أكثر من عقد من حياتها في الولايات المتحدة، تم استيعاب زينة بدرجات متفاوتة المجتمع الأمريكي، لكن هويتها الثقافية لم تكن ثابتة، بل كانت في حالة تشكّل مستمر داخل ما يُعرف بـ"الفضاء الثالث." ومن منظور قانوني، تُعد زينة مواطنة أمريكية بالفعل، ولكن من الناحية الثقافية والاجتماعية، لم تكن مندمجة بشكل كامل كمواطنة فعلية. وقد لعبت صورة المبنى الشاهق، والتي رأتها خلال إحدى اللحظات الفاصلة، دورًا حاسمًا في اتخاذ قرارها السريع بالتقدّم لوظيفة مترجمة. بالنسبة لها، لم يكن هذا القرار مجرد اندفاع عاطفي، بل كان دافعها الأصلي هو رغبتها في مساعدة البلدين – العراق والولايات المتحدة – على التقارب أو التفاهم بشيء من الجهد المشترك. غير أن هذا القرار، على الرغم من نبل نواياه، هو ما أدخل زينة في معضلة هوية عميقة، إذ وجدت نفسها ممزقة بين انتماءين، لا تنتمي تمامًا لأيٍّ منهما. تقول: "الحرب تشبه البصل الفاسد... رائحته تعلق بكل شيء". كان الموت حاضرًا في كل مكان، ما عمّق شكوك زينة تجاه هذه الحرب. أصبح عملها مجرد وسيلة لاستبدال نوع من التعذيب بآخر. وعندما كانت تخرج إلى الشوارع، كان العراقيون يعاملونها كأجنبية، رغم لغتها ولهجتها. في الأشهر الثلاثة التي قضتها في تكريت، كانت إرادة زينة منهارة، ولم تستطع التكيّف مع الحياة هناك. كلا الجانبين – الأمريكي والعراقي –كان متضررًا من هذا "الدجل المربك"، كما وصفته. امتلأ دفتر زينة بأسماء رفاقها القتلى. لم تكن الحياة كما تخيّلتها: لم يبقَ سوى الحزن، ورائحة الحزن.

في نهاية الرواية عندما توفيت جدتها شعرت زينة بألم شديد لكنها لم تستطع أن تحدد إلى أي جانب تنتمي. كتب فولتير (Voltaire) في قاموس فلسفي عن كلمة "identité": "هذه الكلمة لا تعني بالضرورة الشيء نفسه." ثم أضاف ملاحظة أكثر أهمية: "فقط الذاكرة هي التي يمكن أن تحدد الهوية، أي الهوية الشخصية."[٣٣] من الواضح أن التجارب والذكريات السابقة تلعب دورًا مهمًا في تشكيل وعي الإنسان وهويته. إن السنوات الخمس التي قضتها زينة في العراق شكّلت ذكريات لا يمكن نسيانها، ولكن في الوقت

نفسه لا يمكن استيعابها بالكامل في حاضرها. حتى بعد حصولها على الجنسية الأمريكية، لم تستطع إلا أن تتأرجح بين البلدين، عالقةً في "الفضاء الثالث".

لقد يدرك هومي ك بابا أن تجميد الهوية أو نمذجتها ضمن التفكير الثنائي يُعد أمرًا بالغ الخطورة. فالثقافات المختلفة ليست كيانات ثابتة، بل هي دائما في حالة تهجين مستمر. يُهد هذا "التهجين" عملية تخرق النماذج المتجانسة، وتُعيد صياغة الفروق بين الثقافات، وهو ما يُسميه بابا بـ"الفضاء الثالث": فضاء التشظي والتشريد بين البنية الثقافية والممارسة الاجتماعية. في هذا الفضاء، تُعاد صياغة الهوية بشكل دائم، مما يجعلها في حالة من التحوّل المستمر، لا تعرف الثبات، وإنما هي سلسلة من التغيّرات والتهجينات المتتابعة. وبالنسبة لزينة، فإنها قد تبدو قادرة على "اختيار" هويتها، لكن واقع الحال أن هذه الهويات في حالة صراع دائم. وفي لحظة تاريخية حرجة كهذه، يصبح اتخاذ أي موقف مسألة إشكالية. أما بالنسبة للمجموعات الهامشية المشابهة، فإن بناء هوية خاصة بها لا يمكن أن يتم إلا داخل "الفضاء الثالث"، من خلال تقبّل هذا التهجين والتناقض والصراع كحالة وجودية.

٣. الابعاد من منظور الأخر

طرح هومي ك بابا مفهوم "الاختلاف الثقافي"(cultural difference). والذي يعني أن الهوية الثقافية لا تُبنى انطلاقًا من الذات، بل تتحدد دائمًا من خلال علاقتها بالآخر، أي من خلال الاختلاف. وقد أدى هذا الطرح إلى نتيجتين أساسيتين: أولا، أن جوهر الهوية الثقافية يتجلّى في علاقتها بالآخر، أي أن بناء الذات الثقافية يعتمد على كيفية تفاعلها وتموضعها في مواجهة الآخر؛ الثاني، بما أن الهوية الثقافية تتشكّل نتيجة علاقتها بالآخر، فهي لا تنبع من جوهرٍ ذاتٍ ثابت، بل هي بناء خارجي ناتج عن تمايز مع العالم المحيط. وبالتالي، فإن الهوية ليست كيانًا طبيعيًا أو جوهريًا، بل هي بنية تحتوي في داخلها على اختلافات متعدّدة. بناءً على ذلك، لا بد أن تكون هناك هويات مكبوتة ومهمشة داخل الهوية السائدة، وتكون هذه الهويات في علاقة توتر أو تمايز مع المركز السائد، وهو ما يجعل بنية الهوية نفسها غير متجانسة من الداخل.[٣٤]

قام هومي ك بابا بتطوير نظرية "الاختلافات الثقافية" في سياق ما بعد الاستعمار، حيث وصف هذه الاختلافات بأنها أداة لقطع الثقافية "السلطة الاستعمارية"، وأشار إلى أنه في لحظة ممارسة السلطة، تصبح لغة السيد مختلطة"، ما يؤدي إلى زعزعة استقرار الخطاب الاستعماري على مستوى النطق والدلالة، ويُفكّك حدود هذا الخطاب من الداخل، ويفتح المجال لبناء هوية هجينة تتجاوز الانقسامات الثنائية بين المستعمِر والمستعمَر.

أما إدوارد سعيد، فقد أكد الطابع التركيبي للهوية، إذ قال: "إن بناء الهوية الذاتية – في رأيي– سواء أكانت شرقية أم غربية، فرنسية أم بريطانية، لا يقوم فقط على مجموعة من التجارب الجماعية، بل هو نوع من البناء يشمل أيضًا بناء هوية الآخر، نقيضًا للذات. كل عصر، وكل مجتمع، يعيد خلق الآخر. ولذلك، فإن الهوية الذاتية أو هوية الآخر ليست ثابتة، بل هي إلى حدٍّ كبير عملية تاريخية، اجتماعية، أكاديمية، وسياسية، تُبنى بشكل اصطناعي. إنها أشبه بمسابقة يشارك فيها أفراد ومؤسسات مختلفة في مجتمعات متعددة."[٣٥] وهكذا، فإن فهم زينة لهويتها لم يكن مجرد وعي بالذات، بل كان أيضًا وعيًا متوترًا بالآخرين الذين يرفضونها أو يعيدون تعريفها. إن الموقع الذي تشغله زينة بين "الذات" و"الآخر"، بين "الغازي" والمغزو"، يجعل من هويتها مجالًا متوترًا للهدم والبناء، ويضعها داخل ما يُسمّى بـ"الفضاء الثالث" الذي تتقاطع فيه الأضداد دون أن تنصهر كليًا في أيٍّ منها.

بعد عودة زينة إلى العراق، لم تكن تعاني فقط من الارتباك النفسي، بل إن القضية الأهم تمثّلت في "الهوية من منظور الآخر". إن إدراك الآخر لهوية الفرد يلعب دورًا حاسمًا في تشكيل الهوية الذاتية، خصوصًا في حالات الهجرة أو العودة من المنفى. وقد ركّز الكاتبة في الرواية على أدوار كل من الجدة رحمة ومهيمين وحيدر، بوصفهم يمثلون "الآخر الداخلي" الذي واجه زينة بعد عودتها.

الجدة رحمة، رغم كونها امرأة مثقفة وذات مكانة رمزية داخل العائلة، فإنها لم تستطع أن تتفهم أو تتقبل عودة زينة كمترجمة ضمن الجيش الأمريكي. وقدّمت الكاتبة هذه المفارقة عبر حوارات كثيرة في الرواية، تُظهر الهوة بين الجيلين، وبين الهوية المتخيلة عن العراق، وتلك التي واجهتها زينة على أرض الواقع.:

"(رحمة)-- إنها تشتغل مع الأمريكان... زينة تشتغل وياهم.

(حيدر)-- خالة، كل الناس تشتغل هذه الأيام مع الأمريكان.

(رحمة)-- لا عيني حيدر. مو تمام. لا أحد من أهالينا وجيراننا يعمل مع الاحتلال.

(حيدر)-- لكنها أمريكية. هاجرت من هنا وهي طفلة وصارت أمريكية...

(رحمة)-- يعني الأمريكي ينسي أصله؟

(حيدر)-- لا، ولكن زينة كبرت وتربّتف في دنيا غير دنيانا.

(رحمة)-- سنربيها من جديد هذه البنت الجاهلة... ها عيني حيدر؟ لن نتركها ناقصة التربية.

قالت الكلمة الأخيرة بالتركية: ((تربية سز))، فاسارع حيدر ووضع كفه على فمها.

(حيدر)-- هس... ما يجوز. هذي بنتنا."[٣٦]

تلتزم رحمة بالتقاليد، بينما يمثّل حيدر جيلًا جديدًا من العراق. إنه يفهم حرقة قلب العجوز، لكنه لا يبدي حماسة لتبنّي موقفها أو مشاركتها في "إصلاح" زينة. بالنسبة له، زينة هي فرصة للخلاص. هي الوحيدة

التي يمكن أن تنتشله من مستنقع الواقع الثقيل، وتساعده على ترتيب أوراق الهجرة والرحيل معها إلى أمريكا. يرى فيها مخرجًا شخصيًا لا أكثر، دون أي تأثير عميق على هوية زينة أو صراعاتها. موقف حيدر إذن، ليس عدائيًا، لكنه أيضًا غير مبالٍ بعودة زينة ولا يساعد في حل أزمتها الهوياتية. أما الجدة رحمة، فهي على النقيض تمامًا. ترى أن زينة قد ضلّت طريقها بعد هجرتها، وأنها بحاجة إلى من يُعيدها إلى "المسار الصحيح".

الحوار التالي بين الاثنين أكثر إحراجاً لزينة:

"(رحمة)-- يا حيفي عليك يا زيون... يا ويلي على أصلك.

(زينة)-- جدتي، اسمعيني، لا تفهمي الأمر بهذا الشكل.

(رحمة)-- بأي شكل تريدينني أن أفهمه؟

(زينة)-- نحن نقوم بعمل جيد في هذا البلد. صدقيني...

سحبت العجوز رأسها من فوق صدر زينة زتطلعت إليها باستهجان.

(رحمة)-- لا تتفوهي بمثل هذا الكلام في الغرفة التي أسلم فيها جدّك الروح. احترمي ذكراه على الأقل...

(زينة) -- هنا مات؟

(رحمة) -- هنا فوق هذا السرير... كان نعمة ربّانية أن يموت قبل أن يرى الاحتلال ويراك.

.....

(رحمة) -- ليتهم أخذوك وأحسنوا تربيتك يا بنت بنتي.

(زينة) --لم على حطة يدك... لم أتغير.

(رحمة)-- تغيرت وصرت خضراء، من أهل تلك المنطقة. "[٣٧]

حاولت زينة أن تشرح لجدتها أنهم جاءوا إلى العراق لإنقاذ الناس، لكن حتى في الظلام، كانت رحمة تقرأ أفكار زينة من بصيص الضوء وهمساتها، ثم تمتمت قائلة" :من المؤكد أن الأسوأ لم يصل بعد"... في عيني الجدة، أصبحت زينة غريبة، فقد أفسدت الولايات المتحدة طباعها، وجعلتها تتدهور وتفقد ملامحها الأصلية. حتى وفات رحمة، لم تنل زينة منها أي قبول أو اعتراف بهويتها الجديدة. كان حيدر ومهيمين أقرب إلى الجدة من زينة، لأنهم في نظرها "عراقيون حقيقيون"، لم تتلوث مشاعرهم الوطنية أو تُشوَّه هويتهم.

أما مهيمن، ابن أكبر لمرضعة زينة طاووس، فيختلف عن حيدر. إنه شاب شجاع ومستقيم، يتحدث مع زينة في الأدب والسياسة، من الشعر إلى فلسفة الحياة، وهو ما جعلها تُعجب به وتُغرم به لاحقًا. ورغم هذا القرب، إلا أنه كان يعتبر زينة أشبه بسائحة أو غريبة. وكان يرى أن الهجرة تخلق شرخًا عميقًا في الوعي الإنساني: فالمهاجر، في رأيه، يعيش في حالة وسطية دائمة، لا يستطيع العودة إلى بلده الأصلي، ولا يندمج

كليًا في المجتمع الجديد. قال عنها: "هذا شخص غيّر جلده." كان تقييمه قاسيًا، جعل زينة تشعر بالعجز عن التفاهم معه أو نيل اعترافه. في الرواية يتم التعبير عن الخلافات بين الشعبين في الحوار:

"(زينة)-- ليس لي غير جلد واحد، لكنه بعدة ألوان.

(مهيمن)-- اسمك زينة وليس حرباء. أما أنا فلا أعرف سوى الوطن الأمّ. لا يمكنني أن أتصور الوطن الخالة أو الوطن العمّة. أشّد سخريتي تعبير ((وطن الثاني)).

(زينة)-- يمكن للعالم كلّه أن يكون وطنك. ألم تسمع بمصطلح ((المواطن العالمي))؟

.....

(مهيمن)-- لماذا جئتم؟

(زينة)-- خلصناكم من صدّام

يقترح مهيمن فكرة أكثر ابتكارا: طردتم كينغ كونغ من المدنية وقبضتم ثمنة العراق كله..." [٣٨]

وقعت زينة في حب هذا الرجل الذي اختلف مع رأيها الخاص، لكنها لم تحصل على موافقته. بالإضافة إلى العلاقة المسماة بالأخوة، فإن مزيدًا من الاختلافات بين الاثنين يكمن في الهوية الثقافية. لا يعتمد تكوين الهوية الذاتية على الوعي الذاتي فحسب، بل يعتمد أيضًا على التعريف من الآخر. " تتضمن هذه العملية من الوعي الذاتي والتأكيد الذاتي أكثر من مجرد فهم ذاتي للنفس، بل تشمل ما إذا كان لدى الآخرين نفس المعرفة أو تصور مشابه للذات."[٣٩] يعتبر موقف الجدة ومهيمن تجاه زينة من أكثر العوامل تأثيرًا في ارتباكها. يمثل موقف الجدة ومهيمن موقف معظم العراقيين تجاه المهاجرين من أمثال زينة. خلال عملية بناء هوية زينة، كان هناك دائما اختلاف بين تعريف المجتمع والآخرين لهويتها، بين تعريف زينة لنفسها، ما جعل من الصعب عليها الاندماج الكامل، سواء مع العرب أو مع الأمريكيين، وبالتالي بقيت دائمًا في فضاء هامشي. إن الشخص الذي يقبل ثقافات متعددة خلال مرحلة نموه، يكوّن هوية متعددة الثقافات، وهي ليست هوية غربية بسيطة، بل هوية متشكّلة في فضاء مختلط من ثقافتين، أي ما يُعرف بـ"الفضاء الثالث" الذي اقترحه هومي ك. بابا.

٤. معارضة العلاقات السياسية

توجد اختلافات في القوة النسبية بين الدول، والعلاقات الدولية غالبًا ما تكون غير متكافئة. بين الولايات المتحدة والعراق فرق شاسع في القوة الفعلية. بعد حادثة "١١ سبتمبر"، ارتفعت المشاعر القومية في الولايات المتحدة مما وفّر فرصة لتيار القومية الوطنية، الذي تمثله المحافظون الجدد، لشن حرب غزا العراق. أما الخصائص الأساسية للقومية الأمريكية، فقد حددت أهداف الولايات المتحدة من هذه الحرب وهي الدفاع

عن الأمن الأمريكية، والسيطرة على نفط العراق، ثم نشر ما يسمّى بالأفكار الديمقراطية الليبرالية للأمريكية، وذلك في إطار سعيها لتحقيق هدفها الأكبر، وهو السيطرة على النظام العالمي.[٤٠]

مع ارتفاع الشعور القومي، أصبحت نزعة معاداة الأجانب شديدة، مما أدى إلى الدعوة إلى الانتقام. لقد أصبح الشعب الأمريكي معاديًا جدًا لما يُسمّى بـ"الإرهاب"، الأمر الذي دفعه إلى اعتبار العراق هدفًا رئيسيًا للضرب. وقد اقتنع الشعب الأمريكي بشكل كبير بالدعاية الحكومية عندما شُنّت حرب العراق. بعد حادثة "١١ سبتمبر"، تصاعدت جرائم الكراهية ضد العرب والمسلمين في مناطق مختلفة من الولايات المتحدة. من ناحية أخرى، قامت وكالة الإف بي آي باعتقال عدد كبير من الأشخاص ذوي الأصول الشرق الأوسط.[٤١] كما أظهر استطلاع أجرته مجلة نيوزويك أن ٣٢٪ من المشاركين قالوا إن الولايات المتحدة يجب أن تفرض رقابة خاصة على العرب المقيمين في أمريكا، وكذلك على الأمريكيين من أصول عربية. [٤٢]

بعد حادث "١١ سبتمبر"، بدأ واضحًا من موظفي الإف بي آي كانوا عديمي الإحساس، ولا يثقون بزينة. وهي الأخرى لم تكن تحمل مشاعر طيبة تجاههم. لقد كان الشك وعدم الثقة متبادلين، مما جعل هوية زينة محل استجواب في المجتمع الثقافي الأمريكي السائد.

كانت الولايات المتحدة تعتقد أن نظام صدام حسين لا يدعم الإرهاب فحسب، بل يمتلك أيضًا أسلحة دمار شامل. وقد سعت إلى "ذبح الديك أمام القرد"، من خلال ضرب العراق وتخويف بقية دول الشرق الأوسط. وقد تأثرت زينة، مثل كثير من الشباب، بالدعاية الحكومية والإعلام الأمريكي. تقول:" لم أكن قد فكّرت كيف سيستقبلنا العراقيون. لكن ما رأيته في القنوات الأمركية لم يكن محيطا. هذا شعب متحمس لتغيير النظام، يحلم بالحرية ويرحّب بقدوم الجيش الأمريكي." [٤٣] قبل شنّ الحرب، أنفقت إدارة بوش نحو ستة أشهر في الترويج لضرورة الحرب على العراق، وتمكنت خلال تلك الفترة من ترسيخ الأساس الجماهيري الداعم لها. وكان الهدف الرئيسي من هذه الحملة الدعائية هو تقديم صدام حسين كرمز تهديد عالمي قاسٍ وخطير، وتصوير الحرب بوصفها ردًا عاجلًا على خطر لا يمكن تجاهله.

بعد أن وصلت زينة إلى العراق وجدت أن العيون خلف العباءات حزينة وباردة للغاية، ولم تستطع أن ترى أي ملامح للفرح. فقد تلاشت فرحة زينة تدريجيًا، واكتشفت أن الحياة المثالية التي تخيّلتها ليست كذلك. بدأت ثقتها التي بنتها في الولايات المتحدة بالتلاشي، وبدأت الشكوك تُراودها حول هذه الحرب:

هل كانت الأمور حقًا كما قال مهيمن؟ لقد طاردت نظام صدام، لكنه فقبضت ثمنه العراق كله. وفي نهاية الرواية، أدركت زينة: "أنا سذاجة أن أظن أن الديمقراطية تشبه المصاصة. تحب أي لون، أطفل محبوب؟ التاجر الذي باع الديمقراطية وضع العصا في الشراب فسلمت إلى الطفل كاد يقطر لعبع. لقد بعناكم

حلمًا جميلًا وصعبًا تحقيقه."[٤٤] لقد كانت هذه الحرب مأساة لكلا الطرفين، ولم يكن فيها منتصر. فالحرب ليست سوى مظهر متطرف من مظاهر الصراع السياسي. بعد مرور سنوات، انتهت "لعبة القط والفأر" بين العراق والولايات المتحدة. لكن هذه الحرب تركت أثرًا عميقًا، ودفعت الجماعات المهمشة في المجتمع الأمريكي – مثل زينة – إلى فهم جديد ومعقد لهويتها، بين الوطن الذي تنتمي إليه بالولادة، والوطن الذي تنتمي إليه بالجنسية.

في هذا الحرب غير العادلة، أصبح الأميركيون الذين غزوا العراق. إن تدخل دولة كبرى بشكلٍ وحشي في الشؤون الداخلية لدولة أخرى وغزو أراضيها يُعد انتهاكًا صارخًا ل((ميثاق الأمم المتحدة)) وقواعد العلاقات الدولية. لقد جلبت حرب العراق اضطرابات وكوارث متتالية للشعب العراقي.[٤٥] في أحد المشاهد، كان السائق العراقي الذي أقلّ زينة يصيح بكلمات ساخرة ويشتم الغزاة. أثّرت هذه الكلمات على زينة، وشعرت بالصدمة من حجم الضرر الذي لحق بالمدنيين. بدأت تشكّ في قناعتها السابقة بأن مهمتها ستجلب الديمقراطية، وبدأ الشك يتسلّل إليها، لا فقط في الحرب، بل في نفسها أيضًا.

تشكل الحرب والخلفية السياسية المحيطة بها العامل الرئيسي في أزمة الهوية التي عاشتها بطلة الرواية. وتأتي هذه الأزمة في سياق عالمي أوسع، حيث أصبحت قضية الهجرة واحدة من أبرز ملامح العولمة اليوم، وتُعد هوية المهاجر موضوعًا يستحق الكثير من الاهتمام، خصوصًا فما يتعلق بمسألة الاندماج في بلد المهجر.

تنتهي الرواية بنهاية حزينة. لم تجدّد زينة عقدها مع الجيش، وعادت إلى الولايات المتحدة، بعدما حاولت أن تكون "ابنة بلدين" في آنٍ واحد، لكنها فشلت في ذلك. في العراق، وقعت في حب رجل لا يجب أن تحبّه – مهيمين، وشهدت وفاة جدتها القريبة. لكنها لم تكن تريد أن تموت في العراق، حيث وُلدت. لقد جلبت الحرب لزينة شعورًا بالغربة، لا فقط من قبل الأمريكيين، بل من العراقيين أيضًا. فالتناقضات السياسية جعلتها غير مفهومة في وطنها الأم، ووُصمت بكونها "غازية"، وهو وسمٌ لم تستطع دفعه ولا التخلّص منه. إن أثر الحرب على الهوية هو العامل الأشدّ حضورًا في الرواية، وهو الذي أدى إلى تصاعد الصراع الداخلي الذي تعيشه زينة، وعمّق اغترابها عن كلا الانتماءين.

باختصار، يمكن القول إن هناك أربعة أسباب رئيسية دفعت زينة إلى الوقوع في "الفضاء الثالث":

أولًا، الهوية هي مزيج عضوي بين الهوية الذاتية والهوية كما يحددها الآخر، ويُعد هذان البُعدان العاملين الأساسيين في تشكيل هوية زينة. لكن التناقض بينهما أدى إلى تهميشها، وبالتالي غرقت في معضلة الهوية الثقافية.

ثانيًا، عامل اللغة كان له تأثير خفي وعميق على زينة. إذ إن طفولتها التي قضتها في العراق، وشبابها الذي عاشته في أمريكا، إلى جانب التربية التقليدية من والديها، جعلوها تتقن استخدام اللغتين العربية

والإنجليزية بطلاقة. لكن، سواء في العراق أو في أمريكا، لم تستطع هويتها الثقافية أن تنتمي بشكل كامل إلى أي من الثقافتين.

ثالثًا، إن الهوية المتعددة الناتجة عن هذا التداخل اللغوي والثقافي جعلت زينة في حالة دائمة من "اللا انتماء"، وهو ما يُعد من أبرز سمات "الفضاء الثالث".

وأخيرًا، فإن خلفية الحرب في الرواية تُعد بلا شك العامل الأقوى الذي زاد من حدة ارتباك زينة. فالحرب جعلتها تعيش في حالة من الارتباك والبؤس النفسي، وأدّت إلى تصاعد النزاع الداخلي المتعلق بهويتها، مما رسّخ وجودها في "الفضاء الثالث" كمكان رمزي ومؤلم في آنٍ واحد.

الخاتمة

تُعد الكاتبة العراقية إنعام كجه جي من أبرز الكاتبات العرب المعاصرات، وقد نجحت في رواية "الحفيدة الأمريكية" في تقديم قصة امرأة ذات هوية ثقافية هجينة، تسعى لإيجاد مخرج من ارتباكها الهوياتي من خلال ما يُعرف بـ"الفضاء الثالث"، وهو ما يمنح الرواية بُعدًا واقعيًا وعمليًا مهمًا.

تناولت الرواية مأساة زينة، المرأة التي تمزقت بين بلدين وثقافتين، ما جعلها تفقد أي شعور بالانتماء إلى هوية ثقافية مستقرة. وقد واجهت صعوبات عاطفية وشخصية متعددة، ما شكّل نموذجًا جماعيًا لحالة "الضياع"، وانعكاسًا لحال جيل بأكمله فقد القدرة على الاختيار في خضمّ حرب العراق وما بعدها.

في ظل عالم معولم، لم تعد قضية الهوية مقتصرة على المهاجرين فقط، بل أصبحت أزمة عامة يواجهها الأفراد نتيجة تسارع تكنولوجيا المعلومات، وتحولات وسائل النقل، وتزايد التبادل الثقافي. أمام هذا التداخل الحضاري، يسعى كثير من الناس إلى البحث عن هوية أو وطن روحي، إلا أن هذا البحث غالبًا ما يصطدم بالعديد من التحديات.

أصبحت التهجين الثقافي إحدى سمات العصر، ولم تعد الهوية الوطنية الواحدة الثابتة كافية لحل إشكالات الهويات الفردية أو الجماعية، خصوصًا للأقليات والمهمشين. اعتمدت هذه الدراسة على تحليل رمزي "البيت الأمريكي" و"المنطقة الأمنية العراقية" كنموذجين لوجود "الفضاء الثالث" في الرواية، وتم من خلالهما تحليل أسباب ارتباك زينة وفهمها لهويتها المتعددة، وذلك بالاستناد إلى نظرية هومي ك. بابا حول "الفضاء الثالث". تهدف هذه المقاربة إلى إعادة التفكير في مفاهيم الهوية والانتماء، والسعي نحو بناء حالة ثقافية متوازنة قادرة على احتواء التعدد والاختلاف، بما يمنح الأفراد أدوات جديدة للخروج من أزمة الهوية.

وبوصفي باحثة في الأدب العربي، لا أتمنى فقط أن يُدرَج الأدب العربي ضمن مصاف الأدب العالمي من خلال جهود الكتّاب، بل أرجو أن تثير هذه الأعمال الأدبية، بما فيها هذه الدراسة، اهتمامًا أوسع تجاه

قضايا المهاجرين والحروب والهوية. قد لا يكون حل الاندماج الهوياتي في رواية "الحفيدة الأمريكية" مثاليًا أو خاليًا من التوتر، إلا أن محاولات زينة الجادة لتجاوز أزمتها تمثل خطوة مهمة. هذا النموذج لا يمنح الأمل لفئة معينة من المهاجرين فقط، بل يُسهم أيضًا في التفكير في اقتصاد متنوع، وثقافة متعددة، وسلام عالمي في ظل العولمة التي يعيشها عالمنا المعاصر.

الهوامش:

١王宁.叙述、文化定位和身份认同——霍米巴巴的后殖民批评理论[J].外国文学.٢٠٠٢(٦)：٤٨.

٢ **Homi K. Bhabha. Of Mimicry and man, The Location of Culture, London: Routledge ,١٩٩٤:٩٠.**

٣ انعام كجه جي، الحفيدة الأمريكية، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الجديد، ٢٠١٠، ص٢١.

٤ نفس المصادر، ص٢١.

٥ نفس المصادر، ص٢٣.

٦ نفس المصادر، ص٣٩.

٧ نفس المصادر، ص٣١.

٨ نفس المصادر، ص١٥.

٩ نفس المصادر، ص١٥.

١٠王宁.霍米·巴巴和他的后殖民理论批评[J]，南方文坛，٢٠٠٢ 年第 ٦ 期，第 ٤٠ 页.

١١汪晖，一个人的观念起源与中国的现代人，汪晖自选集，桂林：广西师范大学出版社，١٩٩٧，第 ٣٧ 页.

١٢赛义德著.王宇根译，东方学[M]，北京：生活·读书·新知三联书店.١٩٩٩.第 ٣٣١ 页.

١٣ انعام كجه جي، الحفيدة الأمريكية، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الجديد، ٢٠١٠، ص ٢٨وص ٢٩.

١٤ نفس المصادر، ص٥٠.

١٥ نفس المصادر، ص٧١.

١٦نفس المصادر، ص١١.

١٧ نفس المصادر، ص ١٩٢.

١٨ نفس المصادر، ص ٩٣.

١٩ نفس المصادر، ص ١٨٧.

٢٠ نفس المصادر، ص ١٧٩.

٢١爱德华·赛义德.王宇根译.东方学[M].三联书店.١٩٩٩ 年.第 ٢١٧ 页 .

٢٢张京媛主编：后殖民理论和文化批评[M]．北京：北京大学出版社，١٩٩٩ 年 ١ 月版，第 ٦ 页.

٢٣انظر: **Stuart Hall, Cultural Identity and Diaspora, in: Rutherford, J. (Ed.), Identity: Community, Culture, Difference. London: Lawrence & Wishart, ١٩٩٠, pp. ٢٢٢–٢٣٧.**

٢٤انظر: **Claire Kramsch. Language and Culture. Oxford University Press, ١٩٩٨.**

٢٥ Burke， P. J. Identity processes and social stress[J]. American Sociological Review，١٩٩١，٥٦(٦) : ٨٣٦—٨٤٩.

٢٦ انعام كجه جي، الحفيدة الأمريكية، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الجديد، ٢٠١٠، ص٢١.

٢٧覃明兴．移民的身份建构研究[J]．浙江社会科学．２００５年１月.第一期.

٢٨ نفس المصادر.

٢٩ Brown H．Douglas．语言学习与语言教学的原则[M]．北京: 外语教学与研究出版社，２００２．１５８。

３０ 陈励．双语主义下语言、文化和身份认同的研究研究[J]．文化学刊．２０１７年６月第６期。

３１郭台辉．公民身份认同：一个新研究领域的形成理路[J]．社会．２０１３年第５期．第６页.

３٢ نفس المصادر.

３３ [法]阿尔弗雷德·格罗塞著.王．鲠译，身份认同的困境[M]．北京：社会科学文献出版社，２０１０，第３３页.

３٤贺玉高．霍米巴巴的杂交性身份理论研究[M]．北京：中国社会科学出版社．２０１２年．第１３１页。

３５爱德华·赛义德．王宇根译．东方学[M]．三联书店．１９９９年．第４２６页。

٣٦ انعام كجه جي، الحفيدة الأمريكية، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الجديد، ٢٠١٠، ص٧٣.

٣٧ نفس المصادر، ص١١٥.

٣٨ نفس المصادر، ص١٣٣وص١٧٣.

３９ 江宜桦．自由主义、民族主义与国家认同[M]．台北：扬智文化事业股份有限公司．１９９８年版．第１３页。

４０ 陈芬芳．美国民族主义与伊拉克战争[J]．社会科学１辑．２０１１年第S１期。

４１ FBI局长：恐怖分子策划“９１１”袭击达五年之久

http://news.sohu.com/٥٧/٠٦/news٢٠٠٥٥٠٦٥٧.shtml, ٢٠١٨-٠٩-١٥.

[٤٢] Deborah J. Schildkraut, The More Things Change... American Identity and Mass and Elite Responses to ٩/١١, Political Psychology, Vol. ٢٣, No. ٣, ٢٠٠٢. (Sep., ٢٠٠٢), pp. ٥١١-٥٣٥.

٤٣ انعام كجه جي، الحفيدة الأمريكية، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الجديد، ٢٠١٠، ص١٣٣وص٣٩.

٤٤ نفس المصادر، ص١٨٠.

٤٥ 钮松、张羽．伊拉克战争对伊拉克未来走向的影响[J]．武汉大学学报（人文社科版）．٢٠١٤．第١期，第١٠٤-١٠٨页．

أولا المصادر:

١. انعام كجه جي، الحفيدة الأمريكية، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الجديد، ٢٠١٠.

ثانيا: المراجع العربية:

٢.جمال ناصر، الهوية الثقافية وتحديات العولمة،٢٨ يناير ٢٠٠٥. http://studies.aljazeera.net

٣.عادل الصويري، الهوية الثقافية ومأزق المفكر العراقي المعاصر، ١٨ سبتمبر ٢٠١٧.
https://annabaa.org/arabic

٤.شيرزاد أحمد النجار، تحديد هوية العراق أمر معقد وصعب، http://www.aljazeera.net.

٥.مبروك بوطقوقة، تحديات الهوية الثقافية العربية في ظل العولمة، جامعة جيجل الجزائر. http://www.aranthropos.com/.

٦.مجاهد الطائي، مقالات: مفهوم الهوية العراقية: هل لا زلت عراقيًا؟، ١٩يناير٢٠١٦ http://www.noonpost.org/.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

٧.爱德华·赛义德.东方学[M].王宇根译，北京：三联出版社，١٩٩٩.

٨.陈芬芳.美国民族主义与伊拉克战争[D]. 华中师范大学，٢٠١١.

٩.葛腾飞.美国在伊拉克的“反叛乱”战略[J].外交评论，٢٠١٣（٢）.

١٠.谷小娟、李艺.语言与身份建构：相关文献回顾[J].外语学刊，٢٠٠٧（٦）.

١١.韩召颖、宋丽.美国发动伊拉克战争决策探析——小集团思维理论的视角[J].外交评论，٢٠١٣（٢）.

١٢.贺玉高.霍米·巴巴的杂交身份理论及其不满[J].河南师范大

学学报(哲学社会科学版)，٢٠١١（٥）.

١٣.贺玉高.霍米·巴巴的杂交性身份理论研究[M].北京：中国社会科学出版社，٢٠١٢.

١٤.霍米·巴巴.后殖民主义、身份认同和少数人化--霍米·巴巴访谈录[J].外国文学，٢٠٠٢（٦）.

١٥.李涛.剖析伊拉克难民问题[J].国际问题研究，٢٠٠٩（٢）.

١٦.柳思思.身份认知与不对称冲突[J].世界经济与政治，٢٠١١（٢）.

١٧.林丰民.阿拉伯现当代作家的后殖民创作倾向[J].国外文学，٢٠٠٤（٢）

١٨.廖炳惠编.关键词 ٢٠٠：文学与批评研究的通用词汇编[M],南京：江苏教育出版社，٢٠٠٦.

١٩.覃明兴.移民的身份建构研究[J].浙江社会科学，٢٠٠٥（١）.

٢٠.陶家俊.身份认同导论[J].外国文学，٢٠٠٤（٢）.

٢١.陶文钊.布什政府的中东政策研究[J].美国研究，٢٠٠٨（٤）.

٢٢.王宁.超越后现代主义[J].北京: 人民文学出版社，٢٠٠٢.

٢٣.王宁.叙述、文化定位和身份认同—霍米巴巴的后殖民批评理论[J].外国文学，٢٠٠٢（٦）

٢٤.王宁.流散文学与文化身份认同[J].社会科学，٢٠٠٦（١١）.

٢٥.王献枢.伊拉克战争的非法性[J].法学评论(双月刊)，٢٠٠٤（١）.

٢٦.生安锋.霍米·巴巴的后殖民理论研究[D].北京语言大学，٢٠٠٤.

٢٧.徐迅.民族主义[M].北京：东方出版社，٢٠١٥.

٢٨.伊娜姆·卡恰奇.如果我忘记你，巴格达，林盛译[M].北京：人民文学出版社，٢٠١٢.

٢٩.张翠梅.公民身份认同研究[M].北京：中国政法大学出版社，٢٠١٣.

٣٠.Bailey and Benjamin H, Language, Race and Negotiation of Identity: A Study of Dominican Americans[M]. New York: LFB Scholarly Publishing LLC, ٢٠٠٢.

٣١.Homi K. Bhabha, ed, Nation and Narration[M], London: Routledge ,١٩٩٠.

٣٢.Homi K. Bhabha. The Location of Culture[M], London: Routledge ,١٩٩٤.

٣٣.Inaam Kachachi. The American Granddaughter[M], Doha, Bloomsbury Qatar Foundation Publishing, Nariman Youssef, ٢٠١٠.